الارض، لها عنده جاذبية معينة، رغم صغر سنه فهو: «ولد يحب الحقول، هكذا يقول ابوه دائماً، وهو مثل حصان اصيل لا يعيش إلا في المروج»(٣٨). فصغر سنه لم يمنعه من اللحاق بالكبار الذين يقاومون. ولأنه لا يملك البندقية، كان يلجأ الى استعارة «مرتينة» خاله كي يشرّق بها نحو «صفد» بمجرد سماعه ان الشباب يحاصرون القلعة. انه يتعامل مع البندقية وكأنها كائن حي يعرفه ويشعر بوجوده: «لو كنت املك بندقيتي لما استعرتك من خالي ابي الحسن. ويجب ان تكوني طيبة جداً معي كي استعيرك مرة اخرى في المستقبل»(٣٩). لم يكن الماضي كله اشراقاً وبطولة، ففي الوقت الذي كان الصغير «منصور» يصعد نحو القلعة، وسط الطرق الوعرة، يحمل صناديق الذخيرة، وهو متأبط حبيبته «المرتينة» الطيبة، كان شقيقه الطبيب المثقف «قاسم» يقضي اوقاتاً لطيفة مع اليهودية «ايفا». كان يتناول معها شرائح الخبز مع الزبدة والمربى، و«اخوه منصور في الوعر المحيط بصفد، يرش حفنة من الزعتر الجاف في نصف رغيف اسمر شديد الخشونة، ويعيد النصف الآخر الى جيب سرواله الكبير فيسقط فوق الرصاص، فيما يواصل عقب البندقية التركية القديمة ضرب مؤخرة فخذه كلما اضطرته الصخور للقيام بقفزة واسعة»(٤٠)، إلا ان صوت الرصاص المنهمر على القلعة، كان يطغى على قهقهات «قاسم» و«ايفا». فقاسم هو الاستثناء، اما منصور ووالده فهما القاعدة. ان المشهد الذي التقى فيه «منصور» مع «والده» عقب فشل هجوم الثوار على قلعة جدين، له دلالة بليغة، تثبت انهما القاعدة وما عداهما الاستثناء الخاطيء في مسيرة الشعب. يعاتبه والده لأنه لحق به للقتال تاركاً والدته العجوز وحدها، فيجيبه: «هذا ما كنت اريد ان اقوله لك، لماذا لا تعطيني بندقيتك وتعود الى مجد الكروم»(٤١). فيجيبه والده: «ليست بندقيتي، بندقية الحاج عباس، دفعت اجرتها ورهنتها زيتوناً، ولذلك لن اسلمها لأي انسان، لأي كفين غير هاتين الكفين»(٤٢). فكلاهما حريص على ان يكون له دور البطل المقاوم، فلقد بدأت الثورة، هذا هو كل شيء. و«منصور» المقاوم، قبل عام ١٩٤٨، عندما يتراءى لـ «حامد» الذي خطا الخطوة الاولى نحو الفعل، يتوحدان معاً ليظهرا من جديد، في مرحلة قادمة، وقد تجَسدا في «سعد» بحلول جماهيري في بحر الثورة، من خلال البطل ــ الشعب.

٣ ــ البطل ــ الشعب

وفي عام ١٩٦٩، كانت المقاومة الفلسطينية قد شهدت امتداداً جماهيرياً، فلسطينياً، وعربياً، وبالذات، عقب معركة الكرامة عام ١٩٦٨؛ حيث باتت المقاومة تمتلك بعداً جماهيرياً واضحاً. فيرصد غسان هذا التحول الكيفي في اهدائه الرواية، الى «ام سعد، الشعب المدرسة». ام سعد، النموذج: الشعب. المدرسة الحقيقية. وليس افتعالاً ولا تعسفاً، اذا قلنا ان هذه الرواية حلقة مكملة للرواية السابقة «ما تبقى لكم». ففي «ما تبقى لكم» كنا مع الطليعة التي تعلن التمرد على ما يحيط بها من حصار وموت. وفي «ام سعد» تسري عدوى التمرد ــ الفعل الى الجميع، فنصبح امام الشعب كله، وقد سار وراء هذه الطليعة، مدركاً ان المواجهة هي قدره وانه، ضمن اية حسابات، لم يعد هناك ما يخسره. وبطلة هذه الرواية (العجوز الفلسطينية ام سعد) هي ذات بطولة فردية، الا انها اكتسبت، على يد غسان، تكثيفاً خاصاً اسبغ عليها ملامح جماعية، فلم تعد ام سعد الفرد، وانما الشعب بأكمله.